

الحرية واستقلال الفكر

آخر خطبة لي بيروت

دعيت الى حضور الاجتماع الشهري لجمعية الجامعة العثمانية بيروت في أوائل هذا الشهر (آذار) فأقترح علي رئيسها ان أخطب فيهم بما يتضح الله به حاكيا عن وغبة الجمهور فقلت ما ملخصه بحسب ما أتذكر

أيها الاخوان الكرام

إن المسائل التي تحتاج الى البحث فيها واستجلاء غوامضها كثيرة جدا فمن الناس من اذا اقترح عليه ان يخطب يبادر الى الكلام في الموضوع الذي يبادر الى ذهنه سواء كان مطابقا لمقتضى الحال يرجى ان يستفيد منه السامعون ما يصحح أفكارهم أو يقوم أعمالهم أم لا. ومنهم من يرى هذه الطريقة متقدمة وانه لا بد ان يخاطب الناس بما يتعلق بحالهم وما ينبغي ان يكونوا عليه في أفكارهم وأعمالهم فلا يحثهم على ما سبيل اليه ولا يقرر لهم ما لا يفهمون حقيقته

مثال من ذلك: ان بعض الخطباء يقف فيقول أيها العثمانيون عليكم ، بالائحاد عليكم بالاتلاف ان الائحاد هو مفيض العمران ومرقي الأوطان ورافع شأن الأإنسان. ويكتفي بمثل هذه الخطايات الجملة التي لا يعلم السامعون كيف يمكن العمل بها فان ائحاد المختلفين في التربية والتعليم والعقائد والأفكار والأخلاق والتقاليد والعادات من الامور لا يمكن ان تحصل بمجرد الحث عليها ومدحها وإنما يجب بيان ما يشترك فيه من يراد حثهم على الائحاد واقناعهم بأن منافهم ومصالحهم مرتبطة به وانها إنما تحفظ وتمو بائحادهم واتفاقهم وتذهب أو تضعف بتخاذلهم وتفرقهم

أما أنا فأقول ان كل كلام صحيح المعنى لا يخلو من فائدة والفكرة الاجمالية لا تخرج الى حيز التفصيل إلا بآرازها بالقول أو بالكتابة ومن لم يستفد اليوم من الكلام

الصحيح فائدة تامة يرجى أن يستفيد غدا فليقل كل أحد ما يرى أنه حق نافع وليقدم
الاهم على غيره وهو ما كانت حاجة الناس اليه أكثر - وإذا قبل لنا ما هو أهم ما نحتاج
اليه الآن ؟ قلنا أننا محتاجون الى اشياء كثيرة من العلوم والاعمال لاجل ان تنهض
لما نكون به أمة عزيزة ولكن نهوضنا يتوقف على أمر عظيم لا يحصل بدونه - فما هو
هذا الأمر الذي هو شرط للارتقاء، في كل علم وكل عمل بحيث يلزم من عدمه المدمم ؟
الآ إنه هو الحرية الشخصية واستقلال الفكر

قد قلت في بعض الخطب التي تكلمت فيها عن الحرية ان استعداد البشر
للارتقاء ليس له حد يعرف ولا غاية تحدد فاذا عاشوا ملايين من السنين يمكن أن
يكونوا في ارتقاء مستمر لا ينقطع اذا كانت حريتهم في العلم والعمل مصونة من عبث
المستبدين فهكذا ترتقي الامم على قدر صيانتها واحترامها لحرية وتختلف عن الارتقاء
بل ترجع الى الوراء على قدر عبثها بالحرية وبحكمها في الباحثين والماملين

مضت سنة الله في البشر بأن الفكر يسبق العمل فاذا كانت أفكار العقلاء
والاذكياء مضغوطة ممنوعة من الحركة والنمو فإنها لا تكون مستقلة والامة لا تخطو خطوة
واحدة الى الأمام الا اذا أطلقنا العنان لجياد الافكار تجول في ميادين الكتابة والخطابة
بلا حرج ولا ضغط لا فرق في ذلك بين المسائل الدينية والاجتماعية والسياسية وغيرها
يجب علينا أن نحترم رأي من يخالفنا كما نحترم رأي من يوافقنا لأن الفلاح
متوقف على ظهور الحقائق وظهورها يتوقف على استقلال الأفكار وحرية البحث
والكتابة والخطابة ولا يخاف على دينه من حرية البحث إلا من لا ثقة له بدينه ومن
كان واثقا بأنه على الحق فإنه يعلم أن مخالفته فيه لا تزيد الا قوة وظهورا فقد نطق
الكتاب العزيز بما هو ثابت عقلا واختبارا من أن الحق يعلم ولا يعلى وأنه ما تصارع
الحق والباطل الا وصرع الأول الثاني « بل تصدق بالحق على الباطل فيدمغه فاذا
هو زاهق » وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا »

علينا أن نبحث بمد هذا عن أنفسنا لنعلم هل نحن نحترم استقلال الفكر وحرية
القول والعمل ؟ هل قمنا بحق هذا الشرط الذي يتوقف عليه كل مقومات الحياة
الاجتماعية والسياسية واسبابها ؟ إن حكومتنا تركت الضغط على عقولنا وافكارنا

والحجر على السنننا وأقلامنا لنكون احراوا في أقوالنا واعمالنا فهل صرنا احرارا بالفعل؟
 نعم أن الحكومة تركت الاستبداد والاستعباد وأباحت لنا الحرية طوعا أو كرها
 ولكننا ما قبلناها فان الافكار لا تزال مضغوطة محجورا عليها أن تبرز من مضيق الدماغ
 الى فضاء الوجود الخارجي والحرية الشخصية مهددة لا من الحكومة بل منا أنفسنا
 في البلد حوادث حيوية كثيرة لا يكتب أحد من أصحاب الجرائد رأيه فيها
 بالحرية. ولماذا؟ أخاف من « المراقب » أن يرجعها له؟ لا إن الجرائد لا تعرض
 الآن على المراقبين كما كانت تعرض في زمن استبداد الحكومة ولكن ما سقط
 مراقب الحكومة الا وقاسم مثل عمله من لا يحصى من دهاء الأمة يقتاتون على
 أصحاب الجرائد وكتابها وعلى الحكومة نفسها وربما كان هذا الاستبداد أشد وطأة
 وأقل ضغطا من استبداد الحكومة

إن جرائد بيروت كان لها مدير واحد لسياستها هو المراقب وكانت نسبة
 أصحابها ومحريها اليه كنسبة محري الجرائد الكبيرة في البلاد الحرة الى رئيس
 التحرير أو مدير السياسة. فكانوا اذا أرادوا كتابة شيء يتحرون أن يكون بحيث
 يرضيه وقد عرفوا ما يرضيه ويحبه فلم تكن مراعاته متذرة عليهم ولكن يتعذر عليهم
 الآن أن يعرفوا ما يرضي هؤلاء المراقبين الذين حلوا محله لأن عقولهم وآراءهم
 ليس لها قاعدة ترجع اليها ولا ميزان توزن به. فهل يمكن أن ترقي الصحافة أو
 الافكار في بلاد يفتت على حملة الاقلام وارباب الافكار فيها كل أحد حتى
 البحار والجمال ويا مع الخس والقول !!

انا قد تمنينا باسم الحرية في أيام إعلان الدستور وأقينا الخطب الكثيرة في
 وصفها، وانشدنا القصائد العديدة في مدحها والتغزل بها، وكان هتاف الجماهير للخطباء
 والشعراء « يعلو في الجوف حتى يبلغ عنان السماء » وكتبنا ذلك الاسم الجميل « الحرية »
 بالخطوط الجميلة وزينا به البيوت والمماهد العامة والخاصة والحدائق فظفرونا بمظهر العاشق
 الوطنان لهذه الحرية الجميلة ولستني أخشى أن نكون في عشقنا لها كعاشق أم عمرو؟
 ولعل بعض الحاضرين لا يعرف خبر هذا العاشق فأذره إعلاما له وتذكيرا لغيره
 من بعض الناس بصديق له مرة فرآه على غير ما يهجد : وآه قلنا مضطربا غسالة

عن حاله فقال إني عاشق وإيمان لا يقري قرار ، ولا يطيب لي اصطيبار ، ولا يهنا
لي طعام ، ولا يزود جفني منام ، قال له صاحبه من عشقت ؟ قال عشقت أم عمرو ،
اجل نساء المعصر ، قال من هي أم عمرو ومى رأيت وجهها المليح ، فبرح بك هذا
التبريح ، قال لا أدري من هي ولا لحتها عيني وإنما سمعت رجلا ينشد في الطريق :
يا أم عمرو جزاك الله مكرمة رذي علي فوادى ابنا كانا

فقلت في نفسي لولا ان أم عمرو هذه أبرع النساء جمالا وحسنا ، وأوفرهن من
التسامه قسما ، لما قال الشاعر فيها هذا القول فمشقتها

وقد طال على هذا العاشق الاحق عشق تلك المشوقة المجهولة حتى مر به
صاحبه يوما فاذا هويكي ويندب قد ساورتها الاحزان ، وروايتها الاشجان ، فسأله
مادهاك ؟ فصاح أواه واويلاه ، لقد بليت بأشد المصائب وأعظم النوائب فقد ماتت
أم عمرو ، وغلبه الفشيح وأخذ في النحيب ، ولما سكت عنه الروع قال له ومن أخبرك
بموتها فهل رأيتها وعرفتها ؟ قال لا ولكنني سمعت الشاعر ينشد في الطريق :
لقد ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

فقلت لولا انها ماتت لرجعت ولما قال الشاعر هذا القول

نعم انني أخشى ان تكون حريتنا المشوقة ، هي أم عمرو المجهولة ، فان الحرية
الحقيقية قد تعرفت اليها فنكرناها ، ورغبت فينا فرغبا عنها ، وأجبت القرب منا فاخترنا
البعد عنها ، والافا بالالكثيرين منا ، يسلطون العامة على من ييدي رأيا يخالف رأيهم
أوهوى أنفسهم ، يهددونه ويهينونه ، واذا لم يوجد له عصبية تمنعه منهم فاتهم بضر بونه ، ومضى
كانت الحكومة المتبذرة تضطهد حرية الفكر والملم أشد من هذا الاضطهاد ، وتحاول
استعبادا أقبح من هذا الاستعباد ، أي البوديين اذل ، آل بودية للحكومة أم البودية للعامة ؟
كان الخطباء والشعراء يقولون في أيام عيد الحرية في مدح الأمة نحو ما يقولونه
في مدح الحرية نفسها لإظهار التناسب بينهما ولا يزال كثيرون منهم يسمعوننا مدح
أنفسنا ، وبشيدون بفضلتنا وفضل سلفنا ، ويمتلون بقول شاعرنا : نبي كما كانت أوائلنا الخ
أما أخوكم هذا فيقول ان ما كان يقال في أيام عيد الحرية لا ينبغي أن يقال اليوم ولا
في كل يوم . ان الأعياد في عرف الناس هي أيام السور والابتهاج فيعصن ان

يتنامي فيها ما يسوء ويتحرى فيها ما يسر، وهذه أيام الجد والعمل فيجب ان نعرف فيها ما نحتاج اليه في هذا العصر لنجاري الام العزيزة القوية، الرامة في بحبوحة المدنية، لان ان نمي النفس بالأقوال التي يلذ سماعها وتترك السنن التي ترقى باتباعها، يقوم انا مرضى ومن كتم داءه قتله، انا مرضى ويجب علينا ان نداوي أنفسنا، ان الادوية لا يقصد بها اللذة، بل يقصد بها المنفعة، هل سمعتم ان الأطاء يداوون المريض المدنف باطعامه الاحوم المالحجة بالقول والافاوية والكنافة والبلاوة والاشربة الخلوحة؟ لالا انهم يداوونه بالمسهلات البشمة العظم والكينا المرة ورماد اووه بالسكين بنال شيئا من بدنه. وكذلك تكون ادوية الامراض النفسية. وانه ليسوءني ان اصرح لكم بما يولكم ولكنها الحقيقة لا بد منها وان كانت مرة كالدواء «أخوك من صدقك لا من صدقك» ان من فضل الحرية علينا ان صرنا قادرين على البحث عن مرضنا وعلى الاجتهاد في معالجته فيجب ان نعرف قيمة هذه النعمة وان نشكر الله تعالى عليها بالعمل الذي نستفيد به منها

أعود فأقول اننا لا يجوز لنا ان ندعي اننا عرفنا الحرية واننا تقدرها قدرها الا اذا كنا نحترم استقلال الفكر فلا نعارض أحدا في إبداء رأيه واظهار علمه باللسان أو القلم ولا يمكن ان نخطو خطوة واحدة الى الامام بدون هذا

فعلكم أيها الفضلاء المحبون لخير أمتكم وقدم بلادكم أن تنصروا الاستقلال الذاتي والحرية الشخصية وأن تبدلوا جهد المستطاع في بث هذا الفكر في طبقات الأمة وتغنوا أولئك الذين نسمع أخبار افتياتهم على الكتاب وأصحاب الجرائد بأن عملهم هذا ضار ببلادهم وان الذين يفرونهم بذلك هم اهل الأهواء الذين يتبعون حظوظ أنفسهم ولو فيما يضر بلادهم

انصروا حرية البحث والطباعة لكي تجلي للأمة الحقائق فتعرف ما يضرها وما ينفعها ولكي تتربي فيها العقول الكيرة بعد رفع الضغط عنها. ان تعملوا هذا نخدموا بلادكم أحل خدمة. وأراني اطلت عليكم في هذا الكلام الخار مع حرارة الجوب بكثرة الاضواء وازدحام الناس فحسبي هذا والسلام